

مسرحي يسخر من الوجود ويعيشه بمتعة

حكيم مرزوقي

الجار الثامن الذي تنساه تونس



● تقلبات حياته تشبه تقلبات شخصيته، ففي دمشق عمل مرزوقي مستشاراً ثقافياً وصحافياً وحتى زبالاً، كي يدفع إيجار غرفته.

محمد الدوامنة، وحصل الفيلم على جوائز عديدة، وهو من بطولة المبدع فايز قزق.

الوسادة الأبدية

في المهرجان الدولي للحكايات، بمدينة مرسياسيا الفرنسية، حصد عمل مرزوقي "الوسادة الحكايات الأبدية" الجائزة الأولى، إضافة إلى برامج إذاعية وأغان نالت نصيبها من الشهرة، ولكنه اختار ألا يضع اسمه عليها. وكان واحداً من المساهمين في "جريدة الدومري" التي أصدرها رسام الكاريكاتير السوري علي فزرات، في فترة يشار إليها بربيع دمشق، الذي بُعث في ما بعد أنه ربيع قديم لم يورق.

تجول في بلدان عديدة، وعمل مع قانات كبيرة، في المسرح والسينما، من بينهم البريطاني بيتر بروك، والفرنسي أوليفيه بي، والإيطالي المقيم في ألمانيا روبرتو تشيلو، ومع الفرنسية أرييل نوسكين.

شهدت حياته تقلبات، تماماً مثل شخصيته، وفي دمشق عمل زبالاً، حتى يدفع إيجار غرفته، وأوكل إليه بعربة يسوقها حمار، عانى معه الأمرين، فهو لم يكن يعلم الكلمة السحرية، حاء، التي تقال للحمار كي يتحرك من مكانه ويسير.

أسوأ الأعمال كان غسل الأطباق في مطعم "سحلول"، حيث قام بغسل الملايين من الأطباق تحت درج، أجبره على حثي ظهره، مما خلف له عاهة مستديمة، إلى أن اتاه الفرج وقابله هناك عازف الأورغ المصري الشهير مجدي الحسيني، فقدم له مبلغاً من المال وطلب من أن يتخلّى عن غسل الأطباق.

في الأيام الأولى لتعارفنا ظننت أن حكيم هجر العمل المسرحي، ولهذا كنت غاضبا منه، لاكتشف أنني مخطئ في هذا، حكيم يعيش 24 ساعة مسرح، سبعة أيام في الأسبوع، ثلاثين يوماً في الشهر، 365 يوماً في العام، معه ستشعر أنك في عرض مسرحي مبهّر لا ينقطع. وكاننا أراد بذلك أن يؤكد انتسابه لمدينة الكاف، عاصمة المسرح والفن في تونس، والتي تعبر بمهرجانها السنوي، 24 ساعة مسرح.

أريد أن أختتم عبارة قالها الممثل والكاتب السوري الكردي لقمان ديري، يصف فيها حال المثقف والفنان، وتحمل الكثير من الطرافة المزوجة بالمرارة "نحن المثقفين والفنانين نعيش لاجئين بعيداً عن أوطاننا، إلا حكيم لاجئ في وطنه تونس".

لماذا تآكل تونس لحم مبدعيها، وتقسو عليهم، مفضلة الترحيب بالغرباء؟ هل ستنظرت تونس موت حكيم، كما انتظرت موت الشباب والصغير أولاد أحمد، لتحتفي بذكراه وتكرمه بعبارات باردة؟ أطلقوا حكيم في تونس، قبل أن يخطفه الموت، ليعيد اكتشافها، ويقدمها إلى العالم كما لم يقدمها أحد من قبل.

صغار المبدعين يحرصون على توثيق أعمالهم، صغيرة كانت أو كبيرة، جيدة أو رديئة، وينتظرون مديح النقاد، جاهزون دائماً بأقلامهم للتوقيع على أوتوغراف معجبين لم يقرأوا لهم يوماً. حكيم نموذج نادر من المبدعين، لم يكثر يوماً ببذل أي مجهود للاحتفاظ بأعماله.

برفقة حكيم عادة لن تحتاج إلى غوغل، سيمدك بالمعلومة التي تحتاجها، وأسرع من محرك البحث. ولكن عندما يتعلق الأمر بأعماله، انس حكيم واستعن بغوغل.

لا تحاول أن تكذب حكيم عندما يقول لك إن هناك أعمالاً مسرحية قدمت له على المسارح العربية والعالمية، وهو كالزوج المخدوع آخر من يعلم. ولهذا السبب وقع السطو على الكثير من أعماله.

عندما عرضت عليه ما تمكنت من جمعه وتوثيقه عن أعماله، وقف مثل طفل صغير قبض عليه متلبساً بالجريمة، ولسان حاله يقول: هل هذا أنا حقاً؟

كان حكيم صديقاً للمثقفين وللطبقة الأرستقراطية في المجتمع المديني، وحتى لا يقال إنه "يطير أفبالاً"، كناية على الكذب، احترمت رغبته بالتحفظ على قائمة من الأسماء تجاوز عددها المئات.

بساط أحمد

لم تقتصر تلك العلاقات على دمشق، بل شملت عواصم عربية وعالمية، وشخصيات تبدأ بمها عبد الوهاب، أجراً من غنى في العالم العربي، إلى عبد الوهاب البياتي، الذي اتخذ من دمشق مكان إقامة له، وأفورقي، الذي كان رئيساً لإريتريا.

وكان حكيم قد أهدى الثورة الإريترية فيلم "الهدية" كتابة، ومشاركة في الإخراج، وحظي الفيلم باحتفاء كبير. وفي "بساط أحمد" تنبأ بالإرهاب، وانتشار ظاهرة الجهاديين الأجانب في سوريا عام 2003، واستبعد النقاد حينها حصول ذلك، ولكنه مع الأسف حصل.

وقد تكون مسرحية "عيشة" التي عرضت عام 1996، وترجمت إلى اللغتين الألمانية والفرنسية، إلى جانب "إسماعيل هاملت" التي عرضت في لندن، وحصلت على جائزة أفضل نص، وجائزة أفضل إخراج عام 1997، من أهم الأعمال المسرحية التي قدمها مرزوقي. بل إن هاتين المسرحيتين، بشهادة كثيرين، من أهم الأعمال المسرحية العربية.

تلا ذلك عمل باسم "ذاكرة الرماد" المطبوع والمنشور في بروكسل باللغة الفرنسية، ومسرحية "لعي" باللهجتين التونسية والسورية، عرضت عام 2003، وقدمت في فرنسا مترجمة إلى الفرنسية بعنوان "بلا بلا بلا".

ولحكيم مساهمات عديدة في عالم السينما، من أبرزها فيلم "المابسترو" بمشاركة المخرج نجاد أنزور، والمخرج



● أعمال مرزوقي تتسم بالقدرة على إقناع نواحي متعددة مثل عمله "ذاكرة الرماد" المطبوع والمنشور في بروكسل باللغة الفرنسية، ومسرحية "لعي" باللهجتين التونسية والسورية.



تونس تأكل لحم مبدعيها، وتقسو عليهم، ولا أحد يعرف لماذا تفضل الترحيب بالغرباء؟ فهل ستنظرت تونس موت حكيم مرزوقي، كما انتظرت موت الشباب والصغير أولاد أحمد، لتحتفي بذكراه وتكرمه بعبارات باردة؟

حرارة الحياة

كيف لهذا التونسي أن يتحدث مع بلهجة أبناء اللاذقية، ويجيدها أفضل مني، ويقص على حكايات تتعلق بشوارع فيها يعرف بشوارع "الأميركان"، ويذكر لي تاريخه، ويفاجئني بأن كنيسة هناك، كانت في الماضي بستانا يعرف باسم بستان "أبوصلاح" والغريب أن أبوصلاح هذا هو الذي، الذي توفي منذ 45 عاماً أو أكثر، وكنت أنسى هذه المعلومة.

وينطلق حكيم الراوي يحدثني عن بقال اسمه جورج صلوة، وعن زوجته، وأولاده، ومخزنته المليء بالصابون الجبن الفاخر.

واللحم المقدد، ومختلف أنواع الويسكي والنيبيذ المعتق، الذي يصعب تواجده في مكان آخر. ويصف لي المطاعم والمقاهي والمخارات التي يحفل بها الشارع.

ولا ينسى حكيم أن يحدثني عن منذر المصري، وهو شاعر ورسام وصديق قديم لديه مرسوم في شارع "الأميركان". ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، ففي جعبة حكيم مفاجآت أخرى، فهو يروي لي بدقة تفصيل عن عائلة المصري، فيتحدث عن أخت منذر الشاعرة مرام، التي تقيم حالياً في باريس، وعن ماهر المصري، الذي عاش فترة في الهند يبحث عن سر السعادة هناك.

ويذكرني بهواية منذر الأثرية إلى قلبه، حبه للموسيقى. هذا العشق الذي حوله إلى جامع للأساطوانات قل مثيله، وكيف عرض عليه، عندما التقى به في الطريق مصادفة، أسطوانة، والفرح يغمر وجهه، فأنا له إنها تسجيل لحفل أحياء جيمس براون في تونس صيف عام 1975

على ركح قرطاج. ولا يغيب عن حكيم أن يذكر لي

علي قاسم
كاتب سوري مقيم
في تونس

التونسيون هم الشعب الوحيد الذي تشربه القهوة ولا يشربها. والتونسي هو الوحيد، دون سائر شعوب الأرض، يجتاز الطريق من جانب إلى جانب آخر، دون أن يلتفت يمينا أو يساراً، أو ينظر خلف ظهره. المعرفة السطحية السريعة تعطي انطباعاً خاطئاً عن الشخصية التونسية؛ فالتونسي يبدو للغرباء حاد الطباع، متهوراً، لا يجيد لغة الاعتذار، ولا يحسن حديث المجاملات.

هذه الصورة تحجب حقيقة أخرى، مخالفة تماماً للشخصية التونسية الحقيقية، التي لا تكشف عن أسرارها إلا بعد فترة طويلة من المعاشرة، فالتونسي يضمن عكس ما يظهر. إن كنت ضيفاً جديداً على تونس ستحتاج بعض الوقت لتكتشف أن التونسي هو الأكثر تسامحاً بين سكان شمال أفريقيا، والأكثر ودا والفة.

فهمتني.. ولا!؛ عبارة تبدو للزائر إعلان حرب ونهيد. ولكن، عندما يستخدم معك التونسي لغة تبدو لك متشنجة ومليئة بالكلام الخارج عن أصول الإتيكيت، فأعلم أنه يحبك. هكذا هو التونسي، يشتمك تعبيراً عن الحب. وكلما زاد حبه لك زادت شتائمه.

في الغالب، لن تجد تونسياً يقول لك تفضل، بل يقول لك بصيغة الأمر "خذ". وعندما يقول لك سامحني فهو لا يقولها طلباً للسماح.

شخصية التونسي

وبالطبع لا يتوقع التونسيون أن يفهم أحد بهذه الطريقة، وهذا في الحقيقة يظهر جانباً آخر من شخصيتهم وهو التواضع. نعم، التونسي الذي يبدو لك للوهلة الأولى فظاً، هو كائن متواضع، وإن كان الوحيد من بين شعوب الأرض يقول: نحن التوائسة.

هو لا يقولها استعلاء، بل تأكيدا لهويته. وهي هوية تجمع بين هويات العالم وتصهرها في شخصية واحدة، إن منحتم نفسك فرصة لفهمها ستحوز على أفضل جائزة في العالم.

إذا أردت أن تكتشف شخصية التونسي، أمامك خيار من خيارين؛ إما أن تتعرف على صديق مثل حكيم مرزوقي، أو تتردد على مخارات البلد المنتشرة وسط العاصمة تونس.

تتباهى لندن بأفخر الحانات، ولكنها حانات متشابهة؛ نفس الرواد، ونفس الأجواء، صعب أن تخرج منها بتجربة شخصية تغنيك روحياً. حانات تونس لا تتشابه، في كل واحدة منها قصة تروى، تختلف عن الأخرى. وقد يحالفك الحظ فتصادف مرزوقي في واحدة منها.

عندها، احرص على مجالسته، فهو النديم والراوي الذي سيحتفك بالمئات من القصص، ولن ينسى أن يضيف عليها بعضاً من توابله الخاصة، فحكيم، وهو بذلك على حق، يعتبر أن الراوي الذي لا يتقن فن الكتابة، راو فاشل. فالكذب كما يؤكد، هو الإبداع المسكوت عنه.

هو صاحب فكرة "الجار الثامن" الذي لم يوص به النبي. كتب عنها وكترسها لمرارتها ومفارقةتها. في اشتقاق من الحديث النبوي الشهير الذي أوصى بالجيران حتى الجار السابع، أما الجار الثامن فسيهمله الجميع، ولعل هذا ما في تلك المفارقة من فكرة مثيرة ومدهشة ما يجعلها تنطبق على كثيرين ربما كان مرزوقي من بينهم. وقد تحوّل هذه الفكرة إلى واحدة من بين أبرز أعماله الشعرية.

ولكن، احذر أن تدمن الجلوس إليه، سيسرقك من نفسك ومن عائلتك، فهو آخر أحفاد أبونواس القائل "عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسال عن خماره البلد". الحياة دون أمثال حكيم لا طعم لها ولا يعول عليها.

لا يقول عليك "لا يعول عليك".